

من هما؟

جميل بن عبد الله بن معمر بن بنى عذرة من قضاة التي
تسكن بالحجاز على طريق مصر والشام، وأمه من «جذام» وهي
تسكن في الجانب الشمالي من هذه الطريق.

ويلتقى نسبه ونسب صاحبتة بثينة عند جددهما حن بن
ربيعة، ثم يختلفان على ما بينهما من تقارب النسب في قوة
العشيرة وصالح الحال.

فكان قومه أعز من قومها، وكان أبوه «ذا مال وفضل وقدر
فى أهله» يلقب بصباح ويحسب له فى بطون قضاة كلها
حساب كبير.

ومن هيبتة بين هذه البطون أن السلطان أهدر دم جميل
إن وجدده أهل بثينة فى دورهم، فوجدوه عندهم مرات ولم
يجترئوا على قتله. بل جعلوا يعذرون إليه وإلى أبيه مرة بعد
مرة مخافة حرب لا قبل لهم بها بين العشيرتين. إلى أن أغلظ
له أبوه القول من تتابع الشكوى إليه، فكف عنها ما استطاع
ثم رجع إلى سيرته معها بعد حين.

ولعله استغنى بجاه أبيه وماله عن قصد الولاة والأمراء
بالمديح طلباً للجوائز والهبات، حتى كان بعضهم يستدعيه
إلى مدحه فيعدل عن ذاك إلى الفخر بقومه في حضرته، كما
حدث بينه وبين الوليد بن عبد الملك حين سافر معه ثم رجز
مكين العذرى بالوليد قائلاً:

يا بكر هل تعلم من علاكا خليفة الله على ذراكا
فطمع الوليد أن يمدحه جميل، ودعاه أن ينزل فيرجز،
فنزل فقال مفتخرًا:

أنا جميل في السنام من معد في الذروة العليا والركن الأشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد ما يبتغى الأعداء منى ولقد
أضرى بالثتم لسانى ومرد أقود من شئت وصعب لم أقد
فغضب الوليد وقال له: اركب لا حملك الله!

ومن جملة سيرته يظهر أنه كان كما قال صعباً لا يقاد،
أو كان على شيء من العناد والخيلاء. فكان يستعظم أن يجترأ
عليه أحد بمناداته باسمه في الطريق، وحدث بعضهم أنه كان
في رهط من عالية القوم عند شعب «سلع» بالمدينة... «إن طلع
علينا رجل طويل بين المنكبين، طوال، يقود راحلة عليها

بزة حسنة... فصاح به عبد الرحمن بن أذهر: هيا جميل!
هيا جميل!... فالتفت مستكبراً يسأل: من هذا؟ فلما عرف
عبد الرحمن قال: قد علمت أنه لا يجترئ علىّ إلا مثلك!.. ثم
جلس فأنشدهم حتى بدا له أن يقوم «فاقتاد راحلته مولياً».
والبزة الحسنة - على ما يظهر من جملة سيرته أيضاً -
كانت من لوازمه التي اشتهر بها ولا سيما فى المحافل، حتى
لقد كان يحسب متكرراً إذا مشى فى البادية بزي الرعاة،
وقال بعض أصحابه: «قدمت من عند عبد الملك بن مروان
وقد أجازنى وكسانى برداً كان أفضل جائزتى. فنزلت وادى
القرى فوافقت الجمعة بها، فاستخرجت بردى الذى من
عند عبد الملك وقلت أصلى مع الناس. فلقينى جميل - وكان
صديقاً لى - فسلم بعضنا على بعض وتساءلنا ثم افترقنا. فلما
أمسيت إذا هو قد أتانى فى رحلى فقال: البرد الذى رأيته
عليك تعيرينه حتى أتجمل به، فإن بينى وبين جؤاس الشاعر
مراجعة... قلت: لا. بل هو لك كسوة، وكسوته إياه... فلما
أصبحنا جعل الأعراب يأتون أرسالاً حتى اجتمع منهم بشر
كثير، وحضرت وأصحابى، فإذا بجميل قد جاء وعليه حلتان

ما رأيت مثلهما على أحد قط. وإذا بردى الذى كسوته إياه قد جعله جلا لجمله..».

فالرجل الذى يتخذ خلعة من الخليفة يزهى بها صاحبها جلاً لجمله، ويلبس خيراً منها، رجل ولا شك مفرط الخيلاء معنى بحسن البزة وأناقة الكساء، وقد ترجع هذه الخيلاء إلى النشأة العزيزة فى بيوت الرئاسة بالبادية، فليس أقرب إلى الخيلاء من أبناء هؤلاء الرؤساء. ولا سيما الذين رزقوا منهم جمال السميت وروعة المظهر كما رزق جميل.

إلا أنها على هذا خليقة مطبوعة فيه لها مرجع غير التدليل والنشأة فى بيوت الرئاسة كما يؤخذ من بعض أوصافه. فقد ذكر صاحب له من أهل تيماء أنه كان معه يحدثه ويستمتع له «إذ ثار وتربد وجهه ووثب نافراً مقشعر الشعر متغير اللون» حتى أنكره.

فهذه الخليقة الجامحة التى لا يملكها صاحبها هى على التحقيق مرجع من مراجع تلك الخيلاء التى اشتهر بها جميل، وقد توافق الطبع والنشأة والمظهر على الإملاء لصاحبنا فى خيلائه، فغير عجيب مع هذا كله أن يتحامق ويحمق، فلا يستتر حمقه حيث يريد وحيث لا يريد.

وكيف يخفى حمق جميل وهو القائل :

لا لا أبوح بحب بثنة إنها أخذت على موثقاً وعهوداً
أيقول هذا البيت رجل رشيد كائنًا ما كان قصده وذهابًا
ما ذهب فى معناه؟

إنه كان مضرب المثل بحق على حماقة «كاتم السر» الذى
يقسم ألا يبوح به ، وهو فى قسمه على الكتمان قد باح !

* * *

فجملته المفهوم من أوصافه وأخباره أنه كان فتى من الفتیان
الذين تكتب لهم - أو تكتب عليهم - حياة الغرام.
فكان وسيماً قسيماً طویل القامة عريض المنكبين مدلاً فى
نشأته منظوراً إليه فى بزته وعزة قومه ، على ضعف فى الخلق
والعقل يقعد به من عظام الأمور ، ولا يكبح جماحه أن بدأت
به غواية الهوى فتمادت به إلى منتهائها ، وكذلك رشحته
النشأة والخلقة والخلقة ليكون جميل بثينة ، وجاء العصر
والجوار فزكيا هذا الترشيح وأوسع له عن مداه ، فهو فى دوره
الذى تمثل لنا به فى عالم الشعر غير غريب .

* * *

أما صاحبتة بثينة فقد وصفها جميل بعين المحب ووصفها
غيره كما يراها كل من رآها ، فخلص لنا من جملة هذه الصفات
أنها كانت «أدماء طوالة» كما قال عمر بن أبي ربيعة ، وأنها
تفرغ النساء طولا كما قال الرجل الذى حمل إليها نعى جميل.
ومن كلام عمر وجميل معاً يبدو لنا أنها كانت على سنة
البدويات فى التأبى والدلال الذى يشوبه الجفاء. فلما تصدى
لها عمر بن أبي ربيعة خرجت له فى مبالها لا تحفله وقالت
له : «والله يا عمر لا أكون من نسائك اللاتى يزعمن أن قد
قتلهن الوجد بك !».

وقال جميل :

ولست على بذل الصفاء هويتها ولكن سبتنى بالدلال وبالبحل
فهى معشوقة بدوية صالحة «لدورها» المشهور مع جميل ،
وقد زادنا جميل معرفة بتفصيلات ملامحها فقال : «إنها لطيفة
طى الكشح ذات شوى خدل^(١)»... وكرر هذا الوصف مرات فقال :

إلى رجح الأكفال هيف خصورها

عذاب الثنايا ريقهن طهور

(١) الكشح : الخصر إلى وسط الظهر ، والشوى : الأطراف والخدل : الممتلىء.

ووصف ثغرها مرة أخرى فقال :

مفلجة الأنياب لو أن ريقها —————
يداوى به الموتى لقاموا من القبر

وعمم الوصف فذكر جيدها وعينها فى بيت يقول فيه :

وأحسن خلق الله جيداً ومقلّة

تُشَبِّهُ فى النسوان بالشادن الطفل

وفى بيت آخر يقول فيه :

لها مقلتنا ريم وجيد جداية

وكشح كطى السابرية أهيف^(١)

فإذا أعطينا «الوصف التقليدى» حقه من هذه الأبيات بقى لنا منها أن بثينة كانت حسناء بدوية لم يثقلها ترف الحاضرة، ولم يعرقها شظف العيش، فهى رشيقة معتدلة الخلق سامقة القوام مستحبة الملامح لمن يراها، مفتوناً بها أو غير مفتون. ومن بعض أحاديث كثير عن إشارات جميل لبثينة وفطنتها إلى معناها وردها عليها لساعتها، يبدو لنا أنها كانت من

(١) السابرية : حرير ينسب إلى سابور، والجداية : ولد الظبى بلغ ستة أشهر.

الذكاء على نصيب يسعف الفتاة فى مواقف الغرام، وهو نصيب غير نادر بين جميع الفتيات.

إلا أنها «شن وافق طبقه» فى علاقتها بجميل، فكانت لا تخلو من حماقة وخفة يلاحظها من يحدثها، وقيل: إنها دخلت على عبد الملك بن مروان «فرأى امرأة خلفاء - أى حمقاء - مؤلّية، فقال لها: ما الذى رأى فىك جميل؟ قالت: الذى رأى فىك الناس حين استخلفوك».

ومثل هذه الحماقة لا تظهر فى الكهولة إلا كان لها أساس أصيل من بداية العمر، وبخاصة فى عهد الغواية والشباب.

* * *

وقد كان جميل يحاول أن يقتدى فى وصفها بابن أبى ربيعة فى وصفه لنسائه المترفات المنعمات فيقول عنها وعن أترابها:

إذا حميت شمس النهار اتقيناها

بأكسية الديباج والخز ذى الخمل

ولكنها محاكاة لا تلبث أن تنكشف وينكشف باطلها كما ينكشف كل زيف وتلفيق. فبثينة هذه من بنات «بنى الأحب» الذين قال فيهم جميل حين غضب:

إن «أحبّ» سفلة أشرار حثالة عودهم خـوّار
أذل قوم حين يدعى الجـار

والذين قال فيهم حين توعده مشيراً إلى عجزهم عن قتله
لأنهم لا يقدرّون على الحرب ولا على الدية:

إذا ما رأوني طالعا من ثنية
يقولون من هذا وقد عرفوني
يقولون لى أهلا وسهلا ومرحبا
ولو ظفروا بى خالياً قتلوني
وكيف ولا توفى دماؤهم دمي
ولا مالهم ذو ندهة فيدوني

وليست هي غصبة هجاء يقال فيها بالحق وبالباطل، لأنهم
فى الواقع لم يجترئوا على حماية عرضهم من جميل حتى بعد
أن أهدر السلطان دمه لهم إن رأوه فى بيوتهم، وكان قصارى
ما يصنعه زوجها أن يشكوه ويشكوها إلى أبيها وأخيها،
وقصارى ما يصنعه هذان أن يتعرضا لها فيشد عليهم جميل
بالسيف فيهربا أو يشكواه إلى أبيه ويعذرا إليه، وقد أربيا
على حد الإعذار.

وكانما كانت وسامة جميلة مزية من مزايا كثيرة حبيب
إليها هواه ولم تكن هي المزية الأولى والأخيرة. كان ماله على
ما يبدو من كلامه بعض هذه المزايا، إن لا محل لقوله إن لم
يكن هذا كذاك:

ولو أرسلت يوماً بثينة تبتغى يميني وقد عزت على يميني
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها وقلت لها بعد اليمين سأليني
سأليني مالى يا بثين فإنما يبين عند المال كل ضنين

ولقد كان يرحل ويعود فيتهمها بصلة جديدة ثم لا تبالى
هى أن تلمح إلى هذه الصلة فى بعض مناجاتها إياه.

وقد تزوجت برجل أعور ضعيف المنة لا يروقها ولا تهابه
ولا تشعر بحماها، فلولا أن «بنى الأحب» كانوا فى ذلك الحين
كما وصفهم لما كان زواجها بذلك الرجل خير زواج ترتضيه،
بعد أن حيل بينها وبين الزواج بجميل.

ونحن نعلم أنها تزوجت ولا نعلم أن جميلاً قد تزوج إلى
أن مات، وقد تكون أوفى النساء له ثم تتزوج لأن أمرها إلى
غيرها، وهو لا يتزوج لأن أمره بين يديه، ولكنها لم تكن من

الوفاء بحيث يقدر الزواج وحده فى ذلك الوفاء ، ولعلها إحدى
الكثيرات اللاتى يصدق فيهن وصف كثير تلميذ جميل :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة
إذا غمزوها بالأكف تليّن